في الأدب العربي

بديع الزمان الهمذاني

بقلم أديب معروف

اسمه ولقبه — هو أبو الفضل احمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني الملقب ببديع الزمان

مولده وأصله — ولد بهمذان حوالى سنة ٣٥٨ هـ — ويظن بعض الادباء أنه من أصل فارسي ولكن عبارة وردت فى رسالة من رسائله كتب بها الى أبى العباس وزير السلطان محمود الغزنوى تدلنا على انه كان من أصل عربى وهذه العبارة « هى ابى عبد الشيخ واسمى احمد وهمذان المولد وتغلب المورد ومضر المحتد »

نشأته وتربيته الاهلية : ومهما يكن من أمر أصله فانه تربى تربية فارسية فى همذان وظهرت عليه علائم النجابة ، منذ حداثة سنه ، وتخرج فى العلم والادب على أستاذ همذان ، ووحيد الزمان ، احمد بن فارس صاحب كتاب المجمل فى اللغة المتوفى سنة ٣٩٠ هـ . وقد حذق أبو الفضل العربية والفارسية معا . وما زال نجمه فى الصعود حتى طار صيته فى الخافقين ، وسار ذكره فى المشرقين ، وضاقت همذان بعلمه وأدبه ، وثقل عليه ظل أهلها ، ففارقها غير آسف على فراقها ، ولا متشوق لرؤيتها ، بل انه تركها ناقماً عليها وعلى أهلها ، اذ يعزى اليه أنه قال :

همذان لى بلد أقول بفضله ... لكنه من أقبح البلدان

صبيانه فى القبح مثل شيوخه ... وشيوخه فى العقل كالصبيان

وأنه قال : لا تلمنى على ركاكة عقلى ... اذا تيقنت اننى همذانى

رحلاته : ولأمر ما غادر مسقط رأسه ، وموطن أهله ، على ألا يرجع اليه ، وأخذ يتجول من مكان الى آخر ، ومن حضرة الى أخرى ، ينهل من مناهل العلم ، ويغترف من بحار الأدب ويلقى الأمراء ويمدحهم ويحظى بعطاياهم

ويقول لنا المؤرخون انه ترك همذان وعمره اثنتا عشرة سنة أى حوالى سنة ٣٧٠ هـ (١) قصد حضرة الصاحب بن عباد باصبهان ونال الحظوة لديه، واستقى من فيض أدبه وشرب من بحر فضله (٢) ثم عرج شمالا الى جرجان وبها الاسماعيلية من طوائف الشيعة فاختلط بها واتصل بأبى سعيد محمد بن منصور (٣) ثم سار شرقا الى نيسابور وبها وصل القمة من بعد الصيت وعلو الذكر، اذ هنالك أملى أربعمائة من مقاماته، وغالب الخوارزمى فغلبه (٤) ثم أبعد فى السفر شرقا حتى اتصل بحضرة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى ومدحه (٥) وأخيرا دفعته يد المقادير إلى هراة فألقى بها عصا التسيار. بعد أن در الله عليه أخلاف الرزق، وأصبح وحيد الدهر، ونادرة العصر، وقد صاهر أبا على الحسين بن محمد الخشنامى وكان أحد فضلاء هراة ونبلائها، فانتظمت أحواله، واقتنى بمعونة صهره ضياعا فاخرة وعاش عيشة راضية

وحين أربى على الأربعين توفى بهراة جمادى الثانى ٣٩٨ فقيل إنه مات مسموما، وقيل عرض له داء السكتة فعجل دفنه، وإنه أفاق فى قبره وسمع صوته بالليل فنبش عليه فوجد أنه مات وهو قابض على لحيته. ولكن

لم يمت من زال من عالم الحس وتأبى آثاره أن تزولا

فقد ترك لنا مقاماته، ورسائله واشعاره، وكلها ناطقة بفضله، مبرهنة على جليل قدره.

هذا هو تاريخ بديع الزمان قصصناه عليك مختصراً. والآن نود أن نورده عليك مع شىء من التفصيل. ولكن قبل أن نفعل ذلك نرى من الواجب أن نصف لك الحالة السياسية والاجتماعية فى العصر الذى عاش فيه ذلك النابغة الكبير، ثم نبين لك مقدار تأثره بالبيئة التى كان يسكنها، لكى تكون على علم تام بالأسباب التى دعته الى أن يسلك ذلك المسلك الذى ذكرناه لك فنقول:

الحالة السياسية

لعلك تذكر حالة البلاد السياسية فى عصر مهيار. وما إخالك الا ملما بما كانت عليه الامبراطورية الاسلامية من انقسام الى دول. الاضطراب فيها مستمر، والشقاق بين أمرائها دائم. وانك لعلى علم بما كان بين بعض هؤلاء الامراء، وبعض من تنافس فى احراز القوتين المعنوية والادبية فلسنا بحاجة الى اعادة ذلك هنا — وليست بنا حاجة الى أن نلفت نظرك الى أن بديع الزمان

يكاد يكون معاصراً لمهيار ، وان كانت ولادة الاول متأخرة عن ولادة الثانى ببضع سنوات غير أن هناك أمرين لا بد من معرفتهما تمام المعرفة (أولهما) ما ذكرناه لك آنفاً من أن بديع الزمان مثل كثيرين غيره من مشاهير كتاب العصر ، ظهروا فى عالم الادب ، ثم غابت شمسهم من سمائه قبل أن يذيع صيت مهيار ، وقبل أن يصبح فى عداد المشاهير من الشعراء (وثانيهما) أن بديع الزمان كان اديباً متجولا فى الاقاليم الشرقية من بلاد الجبل الى أقاصى خراسان وبلاد السند. أما مهيار فلاقامته فى بغداد كانت شهرته مقصورة على بلاد العراق والجزيرة والجهات المجاورة لها

ومع هذا كله كان الكاتب معاصراً للشاعر فما قيل عن الحالة السياسية والاجتماعية فى عصر مهيار ينطبق تمام الانطباق على عصر بديع الزمان

غير أنا نزيدك هنا من وصف الحالة السياسية ، بما له علاقة متينة بتاريخ بديع الزمان ، كما عنينا عناية خاصة بتاريخ الدولة البويهية فى كلام جعلناه مقدمة للبحث فى تاريخ مهيار(١)، ولا نزيدك من وصف الحالة السياسية هنا الا أمرين :

نريد أولا أن نقول إنه من سنة ٣٨٤ أخذت الدولة السامانية صاحبة خراسان فى السقوط وذلك : — ١ — بعد قيام الدولة الغزنوية بأفغانستان والهند (٣٥١—٥٨٢) واستيلاء بطلها السلطان محمود بن سبكتكين على أملاك السامانيين الواقعة إلى الجنوب من نهرى سيحون وجيحون ، — ٢ — بعد قيام الدولة الايلخانية بالتركستان واستيلائها على بخارى عاصمة الدولة السامانية سنة ٣٨٠

وما زالت تلك الدولة فى تدهور حتى انقرضت سنة ٣٨٩ على الرغم من أن آخر أمرائها ابراهيم استمر يدافع عن العرش حتى سنة ٣٩٥

والسلطان محمود هذا كان من معاصرى بديع الزمان وهو من أبطال التاريخ الاسلامى الذين يشار اليهم بالبنان، فاليه يرجع الفضل فى نشر الاسلام بالهند ، ولم يقض نحبه (٤٢١) حتى أسس دولة اسلامية مهيبة الجانب، خضعت لها السند ومعظم أملاك الدولة السامانية وجزء كبير من أملاك الدولة البويهية يمتد إلى أصبهان

وقد كان آل بويه لا يزالون القابضين على زمام الامور ببغداد المديرين لدفة الخلافة المتصرفين فى شؤون الخليفة كيف يشاؤون

(١) راجع مجلة المعرفة الجزء الاول والثانى

ونود ثانياً أن نذكر من الدول التى كانت قائمة فى هذا العصر الذى نحن بصدده

الدولة الزيارية : ٣١٦ — ٤٣٢) المنسوبة الى زيار مؤسسها وقد علا شأن هذه الدولة واتسعت رقعتها حتى وصلت الى حلوان على حدود العراق

ومن أشهر أمرائها شمس المعالى قابوس بن وشكير الأديب الكاتب الشاعر والسياسى الماهر حاكم جرجان وما حولها من سنة ٣٦٦ الى سنة ٤٠٣ فهو بذلك من معاصرى بديع الزمان

ومن هذا ومما عرفت من قبل يتبين لك أن الاحوال السياسية كانت مضطربة، وان نيران حروب كانت مستعرة، بين بعض الدول وبعض، مما أدى الى أن تخومها كانت دائماً فى تغير ولم يكن السلم ليحل بدولة الا ليذهب ويحل محله الشغب

وليس معنى هذا أن الثقافة كانت فى تأخر واضطراب مثل الحالة السياسية، أو أن سوق الأدب كانت كاسدة فى هذا العصر، عصر الفتن والقلاقل. بل بالعكس إن هذا العصر ليعتبر العصر الذهبى، الذى ازدهت فيه الحضارة الاسلامية ووصلت فيه الثقافة فى الشرق الى حد لم يعرفه من قبل. ذلك لما تعلم من التنافس بين العناصر المختلفة من العرب والفرس والترك من جهة، وبين ملوك الدول وأمرائها من جهة أخرى، اذ كان هؤلاء الأمراء يشجعون العلماء والأدباء على الاتجار بأدبهم، ويغرونهم بالأموال والمناصب على التقرب اليهم والالتفاف حولهم، كما تراه مفصلا فى غير هذا المكان

الحالة الاجتماعية

وما قلناه عن الحالة السياسية نقوله عن الحالة الاجتماعية. إذ أن الاضطراب فى السياسة يؤدى فى الغالب الى اضطراب فى حياة المجتمع العامة، لاسيما فى تلك البلاد التى تعددت فيها العناصر، وتشتتت فيها الاهواء، فمن عربى إلى فارسى إلى تركى، ومن سنى إلى شيعى إلى مجوسى ومن قوم يتكلمون بالعربية، إلى آخرين يتخذون الفارسية أو التركية أداة للتفاهم والادب فلا غرو اذا كان النزاع بين الشعوبية وأنصار العربية، لا يزال قائماً. ولا عجب اذا ظل الخلاف بين أهل السنة والشيعة سائدا. ولا بدع إذا تأثرت السياسة بالدين إلى حد كبير، وأصبح اكتراث النفوس بالأحكام الدينية ضعيفاً ضعف شأن الخليفة، وانتشار المجون والخلاعة فى بغداد عاصمة الخلافة ومصدر السلطة الدينية. ولعل من الاسباب التى أدت الى انتصار الغزنويين والايلخانيين على السامانيين والبويهيين أن السواد الاعظم من سكان أطراف الامبراطورية

من الشرق والشمال الشرقي، كانوا يميلون إلى مذهب أهل السنة، إذ أن معظم هؤلاء من القبائل التركية، التي عرفت منذ اعتناقها الاسلام بتعصبها لمذهب أهل السنة —:

ولا نكاد نشك أن الخليفة العباسى القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢) كان يعقد على الدولة الغزنوية آمالا كبارا، وكان يود لو يكون سقوط السامانيين على يدها، ولأمر ما لقب السلطان محمودا يمين الدولة وأمين الملة —:

وخلاصة هذا كله أن الثقافة فى هذا العصر بلغت ما لم تبلغه من قبل. وكان لها مواطن متعددة أهمها بغداد وأصبهان وهمذان، وجرجان والرى، ونيسابور وهراة وغزنه وبخارى وكانت هذه المواطن على اتصال دائم من الوجهة الادبية. وكان لسخاء أمرائها واحترامهم العلماء والأدباء آثار فعالة، فى نهوض العلم والأدب نهضة لا نظير لها من قبل

تأثر بديع الزمان

بالبيئة السياسية والاجتماعية

كانت اذاً أحوال الدول الاسلامية كما وصفنا، وكان بين بعض الأمراء وبعض تناقش مستمر فى تشجيع الأدباء والعلماء، واغرائهم على الانشاء والتأليف بأسمائهم، فمعقول جداً أن يؤدى ذلك الى تنافس عنيف بين رجال العلم والأدب. ومعقول جداً أن يتخذوا هذا التشجيع وسيلة للتكسب بعلمهم وأدبهم. فلا عجب إذا كان بديع الزمان وهو رأس المبدعين فى الكتابة الفنية، ممن زجوا بأنفسهم فى غمار هذه الحرب الأدبية، وألقوا بأنفسهم فى ميدان هذا التنافس المثمر. فتراه على صغر سنه يترك همذان مسقط رأسه ويضرب فى الأرض على راحلته، وينتجع مراكز الأدب، ويعرض ما أنتجته قريحته الوقادة، على آذان ملوك عصره وأمراء زمانه ووزرائه. ويجعل من ذلك سبباً لكسب العيش وسد العوز، وإن قلمه لينطق بالسؤال فى كثير من المواطن، من ذلك قوله فى رسالة أرسلها الى الشيخ العميد (١٦١)

إنا: أطال الله بقاء الشيخ العميد، مع احرار نيسابور فى صنعة لافيها اعان، ولاعنها اصان وشيمة ليست بى تناط، ولا عنى تماط، وحرفة لافيها إدال، ولا عنى تزال، وهى الكدية التى على تبعتها، وليست لى منفعتها، فهل للشيخ أن يلطف بصنيعته لطفاً يحط عنه درن العار وسمة التكسب والافتقار، ليخف على القلوب ظله، ويرتفع عن الاحرار كله، ولا يثقل على الاجفان شخصه

اتصاله بالصاحب بن عباد

وبديع الزمان بعد أن يترك همذان يرحل الى اصفهان، ويدخل فى زمرة الوافدين على الصاحب ويتقدم اليه، وينثر درر أدبه بين يديه فيعجب به أيما إعجاب ويعترف بفضله وعبقريته ،ويقدمه على غيره على حداثة سنه —:

ويروى الرواة فيما يروون، أن الصاحب كان يولع بالشعر الفارسى كما كان يولع بالشعر العربى وكان يهش لشعراء الفرس كما كان يبش لشعراء العرب —:

ومن شعراء الفرس الذين مدحوه منصور الرازى المنطق، فاتفق أن هذا الشاعر القى بين يديه قصيدة بالفارسية راقته، وكان من أبياتها ثلاثة وقعت لديه أحسن موقع هى :

يك موى بدوز ديدم ازدوز لفت جون زلف زدى أى صنم بشانه
جونانش يسنغتى همى كشيردم جون مور له كندم كشد بخانه
باموى شدم بخانه يدر كفت منصور كدام ست از دو كانه

وكان من بين الحاضرين بديع الزمان فأوعز اليه الصاحب أن ينقلها الى العربية شعراً مع التزام بحر السريع ، وقافية الطاء ، فصدع بالأمر، ونطق على الفور.

سرقت من طرته شعرة حين غدا يمشطها بالمشاط
ثم تدلت بها مثقلا تدلى النمل بحب الخياط
قال أبى من ولدى منكما كلاكما يدخل سم الخياط

وقد كان نقل الاشعار من الفارسية الى العربية وبالعكس من الأمور التى حاولها أدباء العصر ونبغ فيها بديع الزمان

رحلته الى جرجان

والظاهر ان اقامة بديع الزمان بأصفهان لم تكن طويلة ، فانه سرعان ماغادرها ونزح الى جرجان، وهى ما كان من سبب لسفره هذا، فاننا نجزم بأنه كان لوجوده بها نفع مادى، اذ أنه اتصل بشمس المعالى قابوس بن وشكير ، امير الدولة الزيارية، ذلك الأديب الخطير الذى شهد بفضله القاصى والدانى ونال من فيضه كل من وصل الى ورده، وقد كان بديع الزمان أحد المغترفين من بحره، يدلك على ذلك رسالة بعث بها اليه وهى (١٣٠)

لم تزل الآمال تعدنى هذا اليوم، والايام التى تمطلنى بألسنة صروفها ،على اختلاف صنوفها

بين حلو استرفى ، ومر استخفى ، وشر صار الى، وخير ماصرت اليه، وأنافى خلال هذه الأحوال أتتبع الآفاق، فأكون طورا مغربا للغرب الأقصى، وطورا مشرقا للمشرق، ولا مطمح الا حضرته الرفيعة ، وسدته المريعة، ولا وسيلة الا المنزل الشاسع، والأمل الواسع وقد صرت أطال الله بقاء الأمير ، بين أنياب النوائب، وتجشمت هول الموارد ، وركبت أكناف المكاره ، ورضعت اخلاف العوائق، ومسحت أطراف المراحل، حتى حضرت الحضرة البهية أوكدت، وبلغت الأمنية أوزدت، والأمير فى الاصغاء الى المجد، والبسط من عنان الفضل، بتمكين خادمه من المجلس ، يتلقاه بيده ، والبساط ينفشه بفمه، الرأى العالى ان شاء الله تعالى

وقد كان بجرجان فى ذلك الوقت، عدد كبير من الاسماعيلية

والاسماعيليون من الشيعة السبعية الذين لا يعترفون الا بسبعة أئمة من العلويين، وهم على والحسن والحسين وعلى زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق واسماعيل بن جعفر. والى اسماعيل هذا ينسب الاسماعيليون .

ولم يظهر شأن هذه الطائفة فى آسيا الا فى عصور متأخرة ، ولكن كان لهم بها اتباع كثيرون فى هذا العصر، فى جهات جرجان . ويقول الثعالبي إن بديع الزمان كان يختلط بهؤلاء ويحضر مجتمعاتهم، ويقول أيضا إنه اتصل بأبى سعيد محمد بن منصور، أحد رؤسائهم ومدحه

ولكن ليس معنى هذا أن بديع الزمان كان ينتمى الى هذه الطائفة فانا لانجد أثراً لتشيعه فى رسائله أو أشعاره

تعصبه للعرب على الفرس

بل بالعكس نجد فى رسائل بديع الزمان ما يبرهن على أنه كان ممن ينتصرون للعرب ولعل ذلك لانه كان من أصل عربى كما قدمنا، وليس أدل على ذلك مما قاله فى رسالة بعث بها إلى الرئيس أبى عامر ، فى معنى السدق حيث يقول (٢٧٩)

نحن أطال الله بقاء الشيخ، إذا تكلمنا فى فضل العرب على العجم، وعلى سائر الأمم، أردنا بالفضل ما أحاطت به الجلود ، ولم ننكر أن تكون أمة أحسن من العرب ملابس، وأنعم منها مطاعم، وأكثر ذخائر، وأبسط ممالك، وأعمر مساكن، ولكنا نقول العرب أوفى وأوفر، وأوقى وأوقر ، وأنكى وأنكر ، وأعلى وأعلم ، وأحلى وأحلم ، وأقوى وأقوم ، ولا ينكر ذلك

إلا وفح ونح ، ولا يجحده إلا نفل نفر — ان عيد الوقود لعيد افك ، وان شعار النار لشعار شرك وما أنزل الله بالسدق سلطاناً ولا شرف نيروزاً ولا مهرجاناً وإنما صب الله سيوف العرب ، على فروق العجم ، لما كره من أديانها ، وسخط من نيرانها — الله والنبي والسعيد العربي ، والتكبير الجهير ، وتلك الجماهير « والملائكة بعد ذلك ظهير » والموسم الطاهر من لغو الحديث ذلك لا ما شرع الشيطان لأوليائه نار لديهم تشب ولعنته عليهم تصب، وخمرة متاعها قليل ، وفى الآخرة خمارها طويل، هذا هو العيد «وذلك هو الضلال البعيد » انهم ليشبون ناراً هى موعدهم والنار فى الدنيا عيدهم، والله إلى النار يعيدهم

تمسكه بمذهب أهل السنة

ولم يكن بديع الزمان متعصباً للعرب فقط ، ولكنه كان متعصبا لمذهب أهل السنة فكثيرا ما تراه ينعى على الفرس تشيعهم لعلى وآله ، ويأخذ عليهم سبهم لأبى بكر وعمر وعثمان وهاك دليلا على ذلك ما كتبه فى رسالة طويلة بعث بها الى الرئيس أبى عامر أيضا اذ يقول (٤٢٤)

ورجع صاحبي آنفا من هراة، فذكر أنه سمع فى السوق صبيا ينشد أن محمدا وعليا لعنا تيماً(١) وعدياً(٢) فقلت ان العامة لو علمت معنى تيم وعدى لكفتنى شغل الشكاية، وولى النعمة شغل الكفاية ، ويل أم هراه، أنصب الشيطان بها هذه الحبالة، وصرنا نشكو هذه الحالة ، والله ما دخلت هذه الكلمة بلدة الا صبت عليها الذا ، ونسخت منها الملة ولا رضى بها أهل بلدة، الا جعل الله الذل لباسهم، وألقى بينهم بأسهم، هذه نيسابور منذ فشت فيها هذه المقالة، فى خراب واضطراب — وهذه قهستان منذ فشت فيها هذه المقالة، جعلت مأكلة الغصص ونجعة الاكدار ولحمة السيف ومزار السنان — وهذه الكوفة مما اختطه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وما ظهر الرفض بها دفعة، ولا وقع الالحاد فيها وقعة، وانما كان أوله النياحة على الحسين بن على رضى الله عنهما وذلك ما لم ينكره الانام ثم تناولوا معاوية، فأنكر قوم وتساهل آخرون فتدحرجوا الى عثمان، فنفرت الطباع ونبت الاسماع، وكان القراع والوقاع، حتى مضى ذلك القرن وخلف من بعدهم خلف لم يحفظوا حدود هذا الامر

(١) تيم : قوم سيدنا أبى بكر (٢) عدى : قبيلة سيدنا عمر بن الخطاب

فارتقى الشتم إلى يفاع[١] وتناول الشيخين رضى الله عنهما — لا جرم أن الله تعالى سلط عليهم السيف القاطع ، والذل الشامل ، والسلطان الظالم ، والخراب الموحش .

بعد هذا لا يبقى مساغ للريب فى أن بديع الزمان كان معارضاً للشعوبيين متبعاً أهل السنة ، على أن هناك أموراً أخرى تؤيد ذلك ، منها شدة ارتباطه بأبى الطيب الصعلوكى الفقيه الشافعى النيسابورى المتوفى سنة ٣٨٧ و أنه لم يطل الاقامة فى الأقاليم الغربية الشيعية النزعة ، وفضل الاقامة فى ربوع الدولة الغزنوية السنية . ولم يتصل بأمراء الدولة البويهية ، وكان شديد الصلة بالدولة الغزنوية ، ولا سيما بوزيرها الاول ، الشيخ أبى العباس الفضل بن أحمد السابق الذكر ، وكثيراً ما كان يمدح السلطان محمود الغزنوى ويهنئه بفتح المدن ، وانتزاع الملك من الدولة السامانية الشيعية المذهب . والسلطان محمود كان متشدداً فى دينه متعصباً لمذهب أهل السنة ، وقد بلغ من تعصبه لمذهبه أنه كان لا يجمع حوله الا السنيين ، وأنه لم يكافئ الفردوس صاحب الشاهانامه على هذا الكتاب الضخم الا قليلا . ذلك لأنه قال أبياتاً يشتم منها رائحة التشيع لآل البيت . فشدة اتصال بديع الزمان بأمثال السلطان محمود هذا . دليل على أنه كان سنياً .

رحلته الى نيسابور

وبديع الزمان يترك جرجان ويجد فى السير حتى يصل الى نيسابور ، سنة ٣٨٢ وقد امتلأت جعبته ، وملأت الأرض عبقريته ، وبنيسابور يحط رحله الى حين ، وفيها يصل صيته أقصى حدوده ، وتتجلى مقدرته بأجلى مظاهرها . إذ هنا أملى على رواد مجلسه أربعمائة من مقاماته وبهر الناس بحدة ذكائه ، ووفرة علمه ، وغزارة أدبه

والمقامة كما تعرف قصة أدبية فكهية ، يرويها الراوى فتستغرق مقامة (جلسه) ولا بد أن يتوخى الكاتب فى كتابتها طريقة فنية ، فيودعها المحسنات اللفظية ، والمعنوية ، ويعنى فيها بالمادة اللغوية ، وأظهر مظاهرها السجع القصير الفواصل ، وتضمين الحكم والامثال والاقتباس من القرآن والشعر . والاشارة الى الحوادث التاريخية ، أى أن المقامة هى أصدق مثال لما وصل اليه النثر الفنى فى العصر العباسى الثانى

(١) اليفاع المكان المرتفع

والمقامة راو يرويها ، وبطل يقص قصص الحادثة بنفسه فى الغالب . وقد اختار بديع الزمان عيسى بن هشام راوية لمقاماته ، ومحلها أبا الفتح الاسكندرى ولم يصلنا من مقامات بديع الزمان إلا ثلاثة وخمسون مقامة ، وهى مطبوعة مشروحة . وهى مع رشاقة أسلوبها قصيرة ، وقائعها خيالية فلما تتحقق ، وفى كتاب النصوص الأدبية مقامة من هذه المقامات فارجع اليها .

وقد ذكرنا لك أن بديع الزمان أخذ هذا الفن من فنون الأدب عن أستاذه أبى الحسن أحمد بن فارس الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٠ والبديع أول من أجاد هذا الفن . وأول من دونت له مقامات ، وقد حاكاه الحريرى (٤٤٧ — ٥١٦) واعترف بفضله ثم نسج على منوالها القاضى حميد الدين أبو بكر البلخى ، فى مقاماته التى بدأ كتابتها بالفارسية سنة ٥٥١

بديع الزمان والخوارزمى

وبنيسابور تعرف بديع الزمان بأبى بكر الخوارزمى . ورأى ما كان له من منزلة رفيعة فى قومه ، فحسده على نعمته ، وعز عليه أن يراه متمتعاً بهذه المنزلة ، وهو يعتقد أنه أعلا منه قدراً ، فاحتال بديع الزمان حتى اتصل به وكان أول ما كتب اليه : (١٢٨)

إنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمر ، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر ، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغض الرطب ، فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى اليه ما بين قصبتى العراق وخراسان ، بل ما بين عتبتى نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزازه لضيف فى بردة جمال ، وجلدة حمال

رث الشمائل منهج الأثواب بكرت عليه منيرة الأعراب

وهو أيده الله ولى إنعامه ، بانفاذ غلامه الى مستقرى ، لأفضى اليه بسرى إن شاء الله تعالى فلم يكن من حظ الخوارزمى العاثر وطالعه السيء الا أن رماه بأقصى سهم فى جعبته ، فجمعه ببديع الزمان ، وكان الخوارزمى شيخاً هرماً ، حسن الظن بنفسه ، شديد الوثوق بمقدرته ونباهة شأنه ، فدعاه ذلك الى أن يسلك سبيل التكبر ، ويتبع خطة الترفع ، على عدوه الذى كان يظنه من خمول الذكر ، وصغر السن ، بحيث لا يجرؤ على منافسته ويحدى أسبقيته ولكن البديع لم يزل يكاتب الخوارزمى ، والخوارزمى يغلظ فى الرد عليه ، حتى انتهى بهم

الأمر الى حرب كلامية لم يلبث خبرها أن انتشر بين أدباء نيسابور وغيرهم ، فضرب كل فيها بسهم ، وانقسموا الى حزبين ، أحدهما مع بديع الزمان وثانيهما عليه .

وقد كانت الجلسات تعقد والحفلات تقام ليشهد الناس ما يجرى بين هذين البطلين من صراع ومنافرة ومبادهة، وقد انعقد إجماع المؤرخين على أن البديع قد أبدع، وأتى بالعجب العجاب ، فى هذه الحرب الطاحنة، وأنه صرع قرنه صرعة لم تقم له بعدها قائمة ، ولم يزل قلبه يدمى حتى قضى عليه ألمه ، وكبر سنه ، فات كاسف البال ، وخلا الجو لقرنه . فعاش عيشة هنيئة راضية ، وأصبح كاتب العصر ونابغة الدهر، ولقب ببديع الزمان .

والحق أن بديع الزمان كان شديداً على ذلك الكهل ، وأنه لم يتورع فى هجائه ونقده . بل كان يحمل على صاحبه حملات عنيفة، ويطلق لسانه العنان، فينطق بفحش القول ، وسقط الكلام . وغير ذلك مما يمجه الذوق السليم ، وتأباه النفس الكريمة أنظر ص ١٩٩ ، ٣٨٩

وبديع الزمان بعد هذا الانتصار الباهر ، وبعد تلك الحملات العنيفة ، لا يحمل حقدا على صاحبه، ولا يفرح لمصائبه، بل إنه لما مرض أسف عليه ، وكتب جوابا عمن كتب يهنئه بمرضه : (١٨٦)

الحر أطال الله بقاءك لاسيما اذا عرف الدهر معرفتى، ووصف أحواله صفتى ، اذا نظر علم أن نعم الدهر مادامت معدومة . فهى أمانى . فان وجدت فهى عوارى . وإن محن الزمان وإن مطلت فستنقد ، وإن لم تصب فكأن قد ، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه ، ولا يعدمها فى جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت — وهذا الفاضل شفاه الله وإن ظاهر بالعداوة قليلا ، فقد باطناه وداً جميلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند اللزوم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالى الا بحالتها من التوجع لعلته ، والتعزن لمرضته ، وقاه الله المكروه ، ووقانى سماع السوء فيه بحوله ولطفه .

(للبحث بقية) (ح . ع)